﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾ [الأنبياء: 79]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ترجيحُ حُكمِ سليمانَ على حكمِ أبيه مع الثّناءِ على اجتهادِهما ومقامِهما

لمّا ذكرَ البيانُ الإلهيُّ قصّةَ حكمِ داودَ وسليمان، في قضيّة الغنمِ والحرثِ، ذكرَ هنا ما اختصَّ به سليمانَ منَ التّفهيم، ثمّ أثنَى عليهما جميعًا بإيتاء الحكمِ والعلمِ، ذلك أنّ حكمَ سليمانَ كان أكثرَ سدادًا وصوابًا، مع كونِ حكمِ داود أيضًا سديدًا، لكنّ الأوّلَ أفضلُ، لإبقائِه ملكَ كلٍّ مُحيّزًا، عائدًا إلى صاحبه، مع طيبِ نفسِ كلٍّ منَ الخصمين، برضاهما بالحكم الصّادرِ عن سليمانَ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا﴾: (فهم) أصلٌ، ومعناه عِلْمُ الشَّيْءِ[1]، وفهّمته وأفْهَمْتُهُ: إذا قلت له حتّى تصوّرَه، والاسْتِفْهامُ: أن يَطلبَ من غيره أن يُفَهِّمَهُ، وفهَّمه الأمرَ: مكّنه أن يدركَه، وأن يُحسن تصوُّرَه، جعلَه يفهمُه، والفَهْمُ: هيئةٌ للنّفسِ بها يتحقّقُ معاني ما يُحسنُ، يقال: فَهِمْتُ كذا، وقيل: الفهم: تصوُّرُ المعنى منَ اللّفظ، وفي أحكام الآمديِّ: الفهمُ: جودةُ الذّهن من جهة تَهَيُّئِهِ لاقتناصِ ما يردُ عليه منَ المطالب[2]، ومعنى قولِه: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾، إمّا بأن جعلَ اللّه له من فضلِ قوّةِ الفهم، ما أدركَ به ذلك، وإمّا بأن ألقَى ذلك في روعِه، بأن أوحَى إليه وخصَّه به[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فهم).

(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (فهم)، وفي تاج العروس: تَهَيُّئِه، والتصويب من الأحكام للآمدي وهو المصدر الأصلي للنص المنقول.

(3) الراغب، المفردات: (فهم).

2) ﴿وَسَخَّرْنَا﴾: (سخر) أصلٌ مُطَّرِدٌ مستقيمٌ، يدلُّ على احتقارٍ واستذلالٍ، من ذلك قولنا: سخّر الله ﷻ الشّيءَ، وذلك إذا ذلّله لأمرِه وإرادته[1]، والتَّسْخيرُ: سياقةٌ إلى الغرض المختصِّ قهرًا، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: 13][2]، والتّسخيرُ: التّذليلُ، وسفنٌ سواخرُ مواخرُ، من ذلك، وكلُّ ما ذلَّ وانقادَ أو تهيّأ لك على ما تريدُ، فقد سُخِّر لك[3]، وليس في القرآن منَ التّركيب إلّا ما هو منَ السُّخرية أوِ التَّسْخير[4]، فيكونُ معنَى تسخيرِ الجبالِ لداودَ موافقتَها له في التّسبيح، فكان إذا سبّحَ بين الجبال سمعَها تُسبّحُ مثلَ تسبيحِه[5].

3) ﴿يُسَبِّحْنَ﴾: (سبح) أصلٌ، وهو بابان: أحدُهما جنسٌ منَ العبادة، والآخرُ جنسٌ منَ السّعي، والمقصودُ هنا الأوّلُ، ومنه السُّبْحَةُ، وهي الصّلاةُ، ومنَ الباب التّسبيحُ، وهو تنزيهُ الله جلّ ثناؤه من كلِّ سوءٍ، والتّنزيهُ: التّبعيدُ[6]، وسائرُ ما في القرآن من هذا التّركيب فهو تنزيهُ الله عن أن يُنسَبَ إليه تعالى ما لا يليقُ به: منَ الشّريك أوِ الولدِ، أو نحوه، وبعضُه بالتّعظيم وهو لازمٌ للتّنزيه[7]، فمعنى يُسَبِّحْنَ في الآية: يُقَدِّسْنَ الله تعالى بقول: سبحانَ الله تعالى ونحوه[8].

4) ﴿فَٰعِلِينَ﴾ (فعل) أصلٌ يدلُّ على إحداث شيءٍ من عمل وغيرِه[9] يقال فَعَل يفعَل فَعْلًا وفِعْلًا، فالمصدرُ مَفْتوحٌ والاسْمُ مكسور[10]، واستُعملَ هذا التّركيبُ في القرآن الكريم في مقابلة القولِ، وفي ارتكاب المعاصي والمخالفاتِ، وفي إيقاع العذابِ، وفي مطلق العملِ[11]، والفعال اسمُ الفِعل الحَسَن؛ مثلُ الجود والكرم ونحوه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(2) الراغب، المفردات: (سخر).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (فهم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سخر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 119.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبح).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبح).
(8) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 73.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فعل).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة: (فعل).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فعل).

وروى أبو العبّاس عن ابن الأعرابي أنّه قال: الفعال: فعلُ الواحدِ خاصّةً في الخير والشّرّ، يقال: فلانٌ كريمُ الفِعال، وفلانٌ لئيمُ الفِعال[1]، ومعنى ﴿فَٰعِلِينَ﴾ في الآية: قادرين ومُنجِزين ما نريدُ من تسخيرِ الجبال والطّير لداودَ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تفهيمُ الله لسليمانَ والامتنانُ على داودَ بتسخيرِ الجبال له والطَّيرِ

يُخبرُ الله سبحانَه بأنّه قد فهّمَ سليمانَ الحُكمَ الأوفقَ، بمصلحة الطّرفَين مع العدل، وذلك بالفتحِ عليه، وإدراكِه الحُكمَ الصّائبَ السّديدَ، بتوفيقٍ منه رشيدٍ، وأثنَى على كلٍّ من داودَ وسليمانَ بإعطاء الحُكم والعلمِ لهما، وأنّه قد منّ على داودَ بتطويع الجبالِ تسبِّحُ معه إذا سبَّح، وكذلك الطّيرُ في عليائِها، وهي محلِّقةٌ في طبقات الجوّ، تُسبِّحُ الله، وتَلهجُ بحمدِه، بما هو أهلُه، وأنّه سبحانَه فاعلُ ذلك بحكمتِه وإرادتِه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الفاء) في الآية:

إلهامُ سليمانَ الفهمَ بعد قضاءِ أبيه في مجلسِ الحُكم

عُطِف قولُه تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾، على ما قبْلَه بحرف الفاء، الدّالِّ على التّرتيبِ والتّعقيبِ، بمعنَى أنّ الله سبحانه، ألهمَ سليمانَ هذا الحُكمَ، عقبَ حكمِ أبيه داودَ في قضيّة الحرثِ والغنمِ، في مجلس القضاءِ ذاتِه، دون تأخيرٍ زمنيٍّ طويلٍ، فقد روي أنّه عندما حكمَ داودُ بين الخصمَين، خرجا فمرّا على سليمانَ عليه السلام، فأخبراه بحكمِ أبيه، فقال: غيرُ هذا أرفقُ بالفريقَين، فسمعَه داودُ، فدعاه فقال له: بحقّ البنوّةِ والأبوّةِ إلّا أخبرتَني بالّذي أرفقُ بالفريقين، فقال: أرى أن تُدفعَ الغنَمُ إلى صاحب الأرض، لينتفعَ بدَرِّها ونسْلِها

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فعل).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 120.
(3) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 328.

وصوفِها، والحرثَ إلى أرباب الغنم، ليقوموا عليه، حتّى يعودَ إلى ما كان، ثمّ يترادّا، فقال القضاءُ ما قضيتَ، وأمضى الحُكْمَ بذلك[1].

دلالةُ الفعل الماضي ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾:

سـردُ القصصِ الماضيـةِ لأخـذِ الدّروسِ والعبرِ السّاميّةِ

في قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾، أوثِر استعمالُ الفعلِ ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾، بصيغة الماضي، الدّالّةِ على تحقُّقِ الوقوع، فاللّه سبحانه يقصُّ على نبيّه محمّدٍ ﷺ، قصّةَ حُكمِ داودَ وسليمانَ عليهما السلام.

سرُّ إسنادِ الفعل (فهّم) إلى ضمير العظمةِ:

لا علْـمَ للعبدِ إلّا ما علّمَه ربُّه العليمُ سبحانه

أُسندَ الفعلُ في قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾، إلى ضمير (نا) الدّالِّ على عظمة اللّه ﷻ، فهو الّذي ألهمَ سليمانَ عليه السلام، الفهمَ الأصوبَ، للحكومةِ بما له سبحانه منَ العلمِ الشّاملِ، والقدرةِ الكاملةِ على رفع من يشاءُ من عباده، في درجات العلم والفهم[2]، قال سبحانه: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: 76]، وتعظيمُ الفاعلِ يدلُّ على عظمة الفهمِ الّذي منحَه اللّه لعبدِه سليمانَ عليه السلام.

نُكتةُ استعمالِ الفعلِ ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ بالتّضعيف:

تـفـهـيـمُ الـلـه الـوهّـابِ لعبده سُـلـيـمـانَ الصّوابَ

جاء الفعلُ في قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾، على صيغة (فعّل) المضعّف، وذلك لإفادة التّعديةِ إلى المفعولَين، فجملةُ ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾، فعلٌ وفاعلٌ و(الهاء) مفعولٌ به ثانٍ، و﴿سُلَيْمَٰنَ﴾ مفعولٌ به أوّلُ، وهذا في قراءة جمهور القُرّاء العشرة، وورد في قراءة شاذّة، عن عكرمة (فأفهمناها)، فعُدّي الفعلُ بالهمزة، كما عُدّي في قراءة الجمهور بالتّضعيف[3]، كما تدلّ صيغةُ التّضعيف على المبالغةِ في الفعل مع كثرةٍ فيه، مع تحقّقِ مُحاولاتٍ متعدّدةٍ في التّعليم والتّفهيم؛ لأنَّ القضيةَ تتكوّنُ من تفاصيلَ فتحتاجُ إلى نظرٍ فيها وحُسنِ فهْمٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 79.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 454.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 455.

لمكوّناتِها فأوثِر التّعبيرُ فيها بصيغة المبالغةِ والكثرةِ، وفيه إرشادٌ للقضاة أن يُحسنوا الفهمَ ويُبالغوا في دراسة أجزاءِ القضيّةِ دراسةً معمّقةً وتفصيليّةً حتى يُلهَموا الفهمَ الأعمقَ والأدقَّ.

مرجعُ الضّميرِ في قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾:

أثـرُ التّقديرِ في تحديدِ مرجعِ الضّميرِ

اتصّل الفعلُ في قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾، بضمير (ها)، الدّالِّ على أنّ مرجعَه مؤنّثٌ، وكان المتبادَرُ أن يكون مذكّرًا؛ لأنّه راجعٌ على الحكم المذكورِ، في قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾، فيقدّرُ مرجعُه المؤنّثُ بما يناسبُ السّياقَ، نحوَ: المسألةِ أوِ الفتيا أوِ الحكومة ... الخ[1]، والأمرُ في ذلك واسعٌ، ولعلَّ التّأنيثَ للضمير قُصد به تفهيمُ أجزاءِ الموضوع والقضيّةِ، وما الحكمُ إلّا القرارُ النّهائيّ الصّادرُ بعد النّظرِ والفهم، فالذي يناسبُ التّفهيمَ أجزاءُ القضيّةِ ومكوّناتُها، كما جرى تقديمُ المفعول الثّاني على المفعول الأوّل إذِ الأصلُ (ففهمنا سليمانَ المسألةَ) لإفادة اختصاصِ الفهم بسليمانَ دون غيرِه.

بلاغةُ فنّ جمْعِ المؤتلفِ والمختلفِ في الآية:

التّسويةُ بين داودَ وسليمانَ في العلمِ وتفضيلِ سليمانَ بالفهمِ

تضمّن قولُه تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ فنًّا من فنون البلاغةِ يُسمّى جمْعَ المؤتلفِ والمختلفِ، وهو عبارةٌ عن أن يريدَ المتكلّمُ التّسويّةَ بين ممدوحَين، فيأتي بمعانٍ مؤتلفةٍ في مدحِهما، ثمّ يرومُ بعد ذلك ترجيحَ أحدِهما على الآخر، بزيادة فضْلٍ لا يُنقِصُ مدحَ الآخر، فيأتي لأجل ذلك التّرجيحِ بمعانٍ تخالفُ معانيَ التّسويّة، ففي الآية ساوى أوّل الآية بين داود وسليمان ﷺ، في أهليةِ الحُكم، ثمّ رجّح آخرها سليمانَ، حيث يقول ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾، فأتى بما يقوم مقامَ تلك الزّيادةِ الّتي يرجّحُ بها سليمانَ لترشدَ إلى المساواةِ في الفضل، لتكونَ فضيلةُ السّنّ وما يَستتبعُها

(1) السمين الحلبي، الدّرّ المصون: 8/ 185.

من وفرة التّجاربِ وحِنكةِ الحياة قائمةً مقامَ الزيادة الَّتي رُجِّح بها سليمانُ في الحكم[1].

دلالةُ (الواو) في قوله ﴿وَكُلًّا﴾:

أثـــرُ حـــروفِ المعاني في تنوّع المعنَى القرآنيّ

تصدّرَ قولَه تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ حرفُ الواو، فجعله بعضُ المفسّرين للعطف، على حُكمِ سليمانَ وداودَ ﷺ، في قضيّة الحرث والغنم، بمعنى أنّ اللّه أثنَى عليهما معًا في حُكمِهما، بأنّه آتاهما الحُكمَ والعلمَ وإن خصَّ سليمانَ بفهمٍ وتفهيمٍ أرجحَ.

وذهب بعضُ المُفسّرين إلى أنّ الواو هنا للاستئناف، وأنّ الكلامَ بعدها مستقلٌّ، عن قضيّة الحكم في الحرث والغنمِ، بل هو ثناءٌ عليهما بالحُكم والعلمِ، في غير هذه القضيةِ، واستدلّ أصحابُ هذا القول بأنّ اللّه سبحانه قال: ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، بلفظ التّنكيرِ، ولو أراد الثّناءَ عليهما في هذه المسألة، بالحكم والعلم، لقال: (وكلّا آتينا حُكمَها وعلمَها)[2]، ومنَ المفسّرين من جعل هذه الآيةَ، غيرَ مختصّة بداود وسليمانَ فقط، فقد آتى اللّه سبحانه داودَ وسليمانَ والرّسلَ الّذين ذكرَهم، في أوّل هذه السّورة حكمًا وعلمًا[3].

بلاغةُ الاحتراسِ في الآية الكريمة:

دفعُ توهّمِ خطأِ داودَ في الحكمِ بتخصيص سُليمانَ بالفهم

في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، احتراسٌ بديع، وذلك بِدفعَ ما عسى أن يوهِمَه تخصيصُ سليمانَ ﷺ بالتّفْهيم، من عدمِ كوْنِ حكمِ داودَ ﷺ حكمًا شرعيًّا، أو أنّ حكمَ داودَ كان خطأً أو جَوْرًا، وإنّما كانَ حكمُ سليمانَ، أصوبَ وأرفقَ بالخصمَين[4]، وقد خرج هذا الكلامُ مخرجَ الثّناءِ عليهما لاجتهادِهما، وقد روي عنِ الحسن

(1) درويش، إعراب القرآن: 6/ 344.
(2) الواحدي، البسيط: 15/ 140.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 475.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 79، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 119.

رحمه الله قولُه: (لولا هذه الآيةُ لرأيتُ القضاةَ قد هلكوا، ولكنّه أثنَى على سليمانَ ﷺ بصوابِه، وعذرَ داود ﷺ باجتهاده)[1].

دلالةُ تقديم المفعولِ به ﴿وَكُلًّا﴾ على عاملِه:

تقدّمَ في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، المفعولُ به ﴿وَكُلًّا﴾، على عامله ﴿ءَاتَيْنَا﴾، للدّلالة على اختصاص سليمانَ وداودَ ﷺ، من دون ناسِ زمانِهما بالحكمِ والعلمِ، ويمكنُ أن يقال إنّه تقدّمَ لغرضِ الاهتمامِ بهما عليهما الصّلاةُ والسّلامُ.

اختصاصُ داودَ وسليمانَ ﷺ بالحكمِ والعلمِ

دلالةُ لفظِ ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ في الآية:

يُخبرُ الله ﷻ، في قوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، أنّه آتى داودَ وسليمانَ ﷺ، الحكمَ والعلمَ، فقال بعضُ المفسّرين إنّ الحكمَ هو النّبوّةُ، وهذا له نظائرُ كثيرةٌ، وأنّ العلمَ المقصودَ، هو العلمُ بأحكام اللّه[2]، وذهب غيرُهم إلى أنّ الحكمَ هو الحكمةُ، وهو النّبوءة، والعلمُ: أصالةُ الفهم[3].

شيوعُ الحكمِ في النّبوّة والعلمِ بأحكامِ الله

نُكتةُ التّنكير في لفظَيْ ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾:

جاء في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، لفظا الحُكم والعلم نكرتَين لنُكتةِ التّكثيرِ أو التّنويع، أي إنّ الله سبحانه آتاهما حُكمًا وعلمًا كثيرًا ونوعًا متميّزًا منهما، والّذي منه العلمُ بطرقِ الاجتهاد، والفصلِ بين المتخاصمين كما وقع في قصّة الغنمِ والحرث[4].

بيانُ إيتاءِ الله داودَ وسليمان حظًّا عظيمًا منَ العلمِ والحُكم

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَسَخَّرْنَا﴾:

رُبط قولُه تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾، بما قبْلَه بحرف الواو الدّالِّ على الاستئناف، فبعدَ أن ذكرَ الله سبحانه كرامتَه العامّةَ ونعمَه المشتركةَ بين داودَ وسليمان ﷺ، شرع في بيان

الاستئنافُ بما اختُصّ به داودُ ﷺ دون سائرِ الأنام

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 455.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 475.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 115.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 72.

ما اختصَّ به كلٌّ واحد منهما منَ الكرامات الخاصّةِ والمُعجزات الباهرةِ[1]، ودفعًا لتوهُّم أنَّ تفهيمَ سليمانِ المسألةَ الَّتي وقع فيها التّخاصمُ يعني تفوّقَ سليمانَ على داودَ في النِّعم الأخرى فاستأنف الكلامَ ببيان فضلِ داودَ وما منحَه اللّه من نِعمٍ عظيمةٍ.

سرُّ إسنادِ فعلِ التّسخيرِ إلى ضمير العظمةِ:

أُسندَ التّسخيرُ في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾، إلى ضمير العظمةِ (نا)، للدّلالةِ على أنّه لا يقدرُ على تسخير تلك المخلوقاتِ إلّا خالقُها العظيمُ سبحانه، فبعظمتِه أنطقَ كلَّ شيءٍ، وجعلَه يسبّحُ بجلال وجهِه، وعظيم سلطانه، واستُفيدَ منه تعظيمُ الفعل في ذاتِه؛ لأنَّ من شأن الفاعل العظيم أن يُنجزَ الأفعالَ العظيمةَ.

بيـانُ عظـمةِ الخالق المنّانِ في إنطـاقِ الجماد والحيوانِ

نُكتةُ التّعبيرِ بالظّرفِ ﴿مَعَ﴾ في الآية:

أوثِر في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾، التّعبيرُ بالظّرفِ ﴿مَعَ﴾ لكونِه نصًّا في المعيّة، بمعنَى أنّ داودَ عليه السلام، كان إذا سبّح بين الجبال سمع الجبالَ تسبّحُ معه مثلَ تسبيحِه، وهذا معنى التّأويبِ في قوله في الآية الأخرى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ: 10]، إذِ التّأويبُ التّرجيعُ، مشتقّ من الأوبِ وهو الرّجوع، وكذلك الطّير إذا سمعت تسبيحَه، تغرّدُ تغريدًا مثلَ تسبيحِه، وتلك كلُّها معجزةٌ له[2]، واستُفيد منَ المعيّةِ المُتابعةِ والبَعديّةِ فهو يبدأ بالتّسبيح ثمّ يُنشدان بعدَه التّسابيحَ اقتداءً واهتداءً به وما ذلك إلّا إكرامًا له وتأكيدًا لإمامته.

مصاحبةُ الجبالِ والطّيرِ لداودَ عليه السلام في التّسبيحِ

دلالةُ تقديمِ شبْهِ الجملة ﴿مَعَ دَاوُۥدَ﴾:

تقدّم في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾، شبْهُ الجملة الظرفيّةِ ﴿مَعَ دَاوُۥدَ﴾ على المفعول به وفعلِه: ﴿ٱلْجِبَالَ

تسخيرُ الجبال والطّيرِ لداود عليه السلام محـضُ خصوصيّةٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 79.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 119.

﴿يُسَبِّحْنَ﴾ للدّلالة على الاهتمام بداود ﷺ، وإظهارِ كرامته[1]، كما يحتملُ التّقديمُ اختصاصَ داود ﷺ دون غيره بهذه المعجزة الخارقةِ، وهي تسبيحُ الجبال والطّيرِ عند تسبيحِه، كان داود يمرّ بالجبال والطّير مسبِّحًا، وكانت هذه المخلوقاتُ تتجاوبُ معه، قال قتادة: يُسَبِّحْنَ بمعنى أنّهنّ يصلّين معه إذا صلّى، وذلك يعني أنّه: كلّما سبّح داود، تسبّحُ معه الجبالُ والطّيرُ، على سبيل التّسخيرِ، وهو دليلٌ على التّخصيص بالكرامةِ والمنزلة العليّةِ عند ربّ البريّةِ[2].

سرُّ فصلِ جملةِ ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ في الآية:

بيانُ صفةِ تسخيرِ الجبالِ والطّيرِ لداود ﷺ

فُصلتْ جملةُ ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ عنِ الجملة الّتي قبلَها، وهي قولُه تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾، لوجود كمالِ الاتّصال بينهما، وهو اتّحادُ الجملتَين اتّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تُنزّلُ الثّانيةُ منَ الأولى منزلةَ نفسِها[3]، فقد وقعت جملةُ ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ بيانًا لجملة ﴿وَسَخَّرْنَا﴾، أو حالًا مبيّنةً لها[4]، فالجملةُ ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ تحتملُ أنّها عطفُ بيانٍ للتّسخير إذ كشفت طبيعتُه وحدّدت نوعَه بالتّسبيح فيكونُ من قَبيل البيانِ بعد الإجمالِ، وهو أسلوبٌ يشوقُ السّامعَ للإصغاء والانتباه لباقي الكلام، وتحتملُ أنّها حالٌ مبيّنةٌ للإبهام الكامنِ في الفعلِ ﴿وَسَخَّرْنَا﴾ وتفيدُ الحاليةُ مع البيانِ التّقييدَ للتّسخيرِ والتّوقيتَ له في وقت التّسبيحِ فيكونُ التّسخيرُ مقيّدًا بوقت التّسبيحِ.

دلالةُ صيغةِ المضارعِ في قوله ﴿يُسَبِّحْنَ﴾:

تجدّدُ التّسبيحِ منَ الجبالِ وسائرِ المخلوقاتِ

أوثِر في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ استعمالُ صيغةِ المضارعِ دونَ غيرِها، لِما يفيدُه المضارعُ منَ التّجدّدِ والاستمرارِ، فيتجدّدُ التّسبيحُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 119.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 434 (بتصرّف).
(3) القزويني، الإيضاح: 3/ 108.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 119.

منَ الجبال، في كلّ وقتٍ سبَّح فيه داودُ إكرامًا له ومعجزةً مصدّقةً بنبوّته، والتّسبيحُ إمّا أن يُحملَ على الحقيقة أو على المجاز، وبالأوّل قال جماعةٌ وهو الظّاهرُ، وذكروا أنّ داودَ كان إذا سبّح بصوته الجميلِ الّذي عبّرَ عنه النّبيُّ ﷺ بالمزامير، سبّحتِ الجبالُ معه، بما يُشبهُ رجعَ الصّدى، ولكنّه صوتٌ، وليس رجعًا للصّوت، وقيل: إنّها كانت تصلّي معه إذا صلّى، وهو معنَى التّسبيحِ، والقائلون بالمجاز، حملوا التّسبيحَ على تسبيحِ من رآها، تعجّبًا من عظيم خلْقِها، وقدرةِ خالقِها، وهو خلافُ الصّحيحِ والمشهورِ، ذلك أنّها مُعجزةٌ خارقةٌ، والمعجزةُ تكونُ حقيقةً لا مجازًا، وتستمدُّ قوّتَها من وجودها الفعليِّ[1].

دلالةُ الواوِ في قوله ﴿وَٱلطَّيۡرَۚ﴾:

عـطـفُ الـطّـيـرِ عـلـى الـجـبـالِ في التّسبيحِ أوِ التّسخيرِ

عُطف قولُه تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ على ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾ بحرف الواو، ويحتملُ أنّها للنّسقِ، فلا يلزمُ حينئذ منَ العطف دخولُ ﴿وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ في قيدِ التّسبيح؛ لأنّها معطوفةٌ على الجبال والعاملُ فيهما ﴿وَسَخَّرۡنَا﴾، ويحتملُ أنّ الواوَ للمعيّة فيكونُ ﴿وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ مفعولًا معه؛ أي: (الجبالَ يُسبّحْنَ مَعَ الطَّيْرِ)، فيلزمُ دخولُها في قيدِ التّسبيح، وتكونُ حينئذ معمولًا للفعلِ ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾، والفرقُ بين المعنيَين أنّها على الأوّل تكونُ الطّيرُ منَ المسخّرات كالجبال من دون دلالةٍ على ترتيبٍ بينهما؛ فكلٌّ منَ الجبال والطّير يردّدُ خلفَ داود ﷺ، وعلى الثّاني تكونُ متبوعةً في التّسبيح إذِ الجبالُ تسبّحُ مع الطّيرِ فتكونُ الطّيرُ سابقةً للجبال، بمعنى أنّ داودَ ﷺ كان يبدأُ التّسبيحَ ثمّ تتبعُه الطّيورُ، وبعد ذلك تتجاوبُ الجبالُ وهذا أشبهُ ما يكونُ في عمليات الإنشادِ وتجاوُبِ الآخرين معه بالتّرديد والمتابعة، وهذا هو الأنسبُ بنظمِ الكلامِ ولذا فصلَ بين المُتعاطفين ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾ و﴿وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ بالفعل ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾، وقيل في سبب العطف، إنّ الطّيرَ أكثرُ سُكناها الجبالُ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 119.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 456.

نُكتةُ تقديمِ ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾ على ﴿وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ في التّسبيح:

إنطاقُ الجمادِ باللّسانِ السّليمِ أعجبُ من إنطاقِ الحيوانِ البهيمِ

قُدّمَ في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ﴾، ذكرُ الجبال على الطّير في التّسبيح؛ لأنّ تسخيرَها وتسبيحَها أعجبُ، وأدلُّ على القدرة، وأدخلُ في الإعجاز، لأنّها جمادٌ والطّيرَ حيوانٌ، إلّا أنّه غيرُ ناطقٍ، وإن كانت على جعلِ الواو في ﴿وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ للمعيّةِ الدّالّةِ على التّأخّر الزّمنيِّ في عمليّةِ التّسبيح إلّا أنّ تسبيحَها أدلُّ على الإعجاز، فقُدّمت لفظًا وإن تأخّرت وقوعًا، روي أنّه كان يمرُّ بالجبال مسبّحًا، وهي تجاوبُه، وكذلك الطّيرُ إذا سمعت تسبيحَه، تغرّدُ تغريدًا مثلَ تسبيحِه وتلك كلُّها معجزةٌ له[1].

دلالةُ الواوِ في قوله ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾:

لا يَستعصي على قُدرةِ الله شيءٌ

عُطفَ قولُه تعالى: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، على ما قبلَه، بحرف الواو الدّالِّ على الجمعِ، لأنّه خرجَ مخرجَ التّذييلِ لِما قبلَه، من تسخيرِ الجبال والطّيرِ، والتّقديرُ أنّه من شأننا أن نفعلَ أمثالَه، فليس ذلك ببدعٍ منّا، وإن كان بديعًا عندَكم[2]، وقيل معترضةٌ بين الإخبار عمّا أوتيه داودُ ﷺ من كراماتٍ، لإزالة استبعادِ تسبيحِ الجبال والطّير معه[3]، وإرادةُ الله في الإعجاز، لا يُعجزُها شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، ولا غرابةَ أن ينطقَ الجمادُ، وأن يتشكّلَ وتدبَّ فيه الحركةُ والحياةُ، وفقَ مرادِ الله، وتطبيقًا لأمرِ كن فيكون، وهو لونٌ منَ المُعجزات، الّتي حبا بها الله رُسلَه في كلّ العصورِ، وكانت مُدهشةً للبشرِ، يَقفون منها موقفَ الانبهار والاستغرابِ، لخروجِها عنِ المألوف المعروفِ.

سرُّ استعمالِ فعلِ الكونِ مسندًا لضمير العظمةِ:

أوثِر في قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، اجتلابُ فعلِ الكون، إشارةً

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 129.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 73.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 456.

إلى أنّ ما سبق ذكرُه من تسخير المخلوقاتِ، وخرْقِ العاداتِ، شأنٌ ثابتٌ للّه من قبلُ، وإن كان عند عبادِه عجبًا، وقدِ اتّفقَ نحوُ هذا للنّبيِّ ﷺ، فقد روي أنّ الطّعامَ كان يسبّحُ بحضرة النّبيِّ ﷺ، قال ابنُ مسعود: "ولقد كُنّا نسمَعُ تسبيحَ الطّعامِ وهو يؤكَلُ"[1]، وفي اتّصاله بضمير العظمةِ إشعارٌ بعظمة الخالقِ القادرِ، على كلّ شيءٍ، بحيث لا يُعجزُه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، والتّقديرُ أنّه من شأننا الفعلُ لأمثال هذه الأفاعيلِ، من تسخير الجبالِ وتسبيحهنّ والطّيرِ، لمن نخصُّه بكرامتنا، ولكلّ شيءٍ نريدُه، بما لنا منَ العظمة المحيطةِ، فلا تستكثروا علينا أمرًا[2]، وأدّى تعظيمُ الفاعل وتفخيمُه إلى تفخيمِ الخبر ليطابقَه، وفي التّعبير باسم الفاعلِ ﴿فَعِلِينَ﴾ دلالةٌ على وقوع ذلك على سبيل الاستمرارِ والتّجدّد، وأنّ هذه سنّتُنا في الفعل لا يمنعُنا عنها مانعٌ.

بيانُ أنّ سنّةَ الله ثابتةٌ في تفضيل أنبيائِه بما شاء من كراماتٍ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفهم والعلم:

يتجلّى الفرقُ بين الفهمِ والعلمِ، في كون الفهمِ: هو العلمُ بمعاني الكلامِ عند سماعِه خاصّةً، ولهذا يقال: فلانٌ سيّءُ الفهمِ، إذا كان بطيءَ العلم، بمعنَى ما يسمعُ الكلامَ، ولذلك كان الأعجميُّ لا يفهمُ كلامَ العربيّ، ولا يجوزُ أن يوصفَ اللّه بالفهم، لأنّه عالمٌ بكلّ شيءٍ على ما هو به، فيما لم يزلْ، وقال بعضُهم: لا يُستعملُ الفهمُ إلّا في الكلام؛ ألا ترى أنك تقول: فهمتُ كلامَه، ولا تقول: فهمتُ ذهابَه ومجيئَه، كما تقول: علمتُ ذلك، كما يظهرُ الفرقُ بين لفظَيْ (فَهَّمَ) و(عَلَّمَ) في كون الفهمِ أخصَّ منَ العلم، فالعلمُ إدراكُ الشّيء على ما هو عليه في الواقع، سواء أكان المعلومُ خفيًّا أم جليًّا، بحيث

الـفـهـمُ عـلـمٌ بمعاني الكلامِ عـنـد سـمـاعِـه والعـلـمُ إدراكُ الـشّيء على ما هو عليه في الواقعِ

(1) رواه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (3579).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 456.

تحصلُ صورةٌ مطابقةٌ للواقع من دون معرفةِ التّفاصيل والدّقائقِ فيها، ويختصُّ الفهمُ بالإدراكِ للخفيِّ الدّقيقِ حتى يقفَ على تفاصيلِ المسألةِ المفهومةِ ومكوّناتِها، والدّليلُ على هذا الفرق، قصّةُ حكمِ داودَ وسليمانَ ﷺ، في قضيّةِ الحرث والغنم، قال سبحانه في قصّةِ داودَ وسليمانَ ﷺ: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾، فخصَّ اللّه سبحانه الفهمَ بسُليمانَ؛ لأنّه أدرك الموضوعَ بتفاصيلِه وما هو الأفضلُ للجانبين قبْلَ النّطقِ بالحكمِ، وعمّمَ العلْمَ لداودَ وسليمانَ[1].

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 414.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»